

شمال سيناء

مقدمة في الجغرافيا التاريخية

الدكتور محمد السيد غلاب

يرجع الفضل في كنية هذا البحث الى الاشتراك في بعثة سيد الصحارى المصرية الى شمال شرق سيناء ، من ١٥ أغسطس الى ٩ سبتمبر ١٩٥١ ، ونحن نشير هنا الى أهم المراجع التي يمكن أن يرجع اليها القارئ اذا شاء الاستزادة في نقطة أو النقط أو استيضاح ما يمكن أن يكون قد أجعل .

تحتل شبه جزيرة سيناء مركزا جغرافيا هاما بين مصر وجاراتها العربيات في جنوب غرب آسيا ، وبين قارة أفريقية وقارة آسيا ، وقد كانت منذ أقدم العصور معبرا للجماعات البشرية بين هاتين القارتين ، وهي اليوم تحتل أخطر منطقة استراتيجية لمصر ، فلا غرو أن يتجه إليها الاهتمام بالدراسة والبحث ولعل في هذه المقدمة الجغرافية التاريخية ما يصلح أن يكون أساسا للدراسات جغرافية بشرية لهذا الجزء من الوطن المصري .

وستعنى هذه المقدمة بالنقط الآتية :

- (أ) أهمية الموقع الجغرافي لشبه جزيرة سيناء .
- (ب) وصف عام للبيئة الجغرافية .
- (ج) أهمية شبه جزيرة سيناء لمصر من الناحية البشرية .
- (د) أهم القبائل البدوية التي تسكن سيناء في الوقت الحاضر .

(١) أهمية الموقع الجغرافي لشبه جزيرة سيناء :

لعل قطراً من الأقطار لم يظفر بالخلود في سجل الآثار المكتوبة مما ظفرت به سيناء فقد ذكرت في آثار الفراعنة في الأسرات الأولى ، في الألف الثالثة قبل الميلاد واستمرت من ذلك الحين ترد في سجلات الفراعنة ونقوشهم بصفتها المورد الهام لمعدن النحاس وحجر الفيروز والزبرجد (١) كما أنها تحتل

(١) أنظر فيما يخص ذلك الى V. Gordon Childe, Man Makes Himself, Ch.

VII, VII What Happened in History, London p. 100 ff.

الدكتور سليم حسن : مصر القديمة جزء أول ، القاهرة ١٩٤٠ من ٣٤٨

مركزا ممتازا في أسفار العهد القديم ، فهي مهبط قبائل بني اسرائيل ، وبني
كنعان (١) من قبلهم ، ومعبرها إلى مصر ، وملاذها حين طردت من وادي النيل .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهي طريق المكسوس أو ملوك الرعاة ،
كما ورد اسمهم خطأ في كتابات المؤرخين الإغريق ، إلى مصر . وهي طريق
تحتسب الثالث ومن بعده الرماصة إلى سوريا ، وهي الطريق الذي عبره جيش
عمرو بن العاص إلى مصر ، كما أنها طريق جيوش صلاح الدين لطرد الصليبيين
من سوريا وفلسطين ، وهي طريق العثمانيين إلى مصر ، كما أنها طريق الطموحين
من المماليك المصريين ، أمثال علي بك الكبير ، ومحمد بك أبو الذهب ،
نحو إعادة تكوين الإمبراطورية المصرية ، في فلسطين وسوريا ، ثم هي أيضا
طريق نابليون لفتح المشرق .

تلك هي سيناء ، ومركزها في الكذب السماوية ، ومركزها أيضا في تاريخ
الحجرات البشرية التي عبرت مصر من الشرق ، وأهميتها في التاريخ العسكري
لا لمصر وحدها ، بل للعالم أجمع . وإذا كانت مصر تحتل موقعا جغرافيا
ممتازا بالنسبة للعالم القديم (الذي كان يشمل الهلال الخصيب ومصر ، ثم اتسع
مدلوله ، فشمل الحوض الشرق للبحر الأبيض المتوسط ، ثم حوض البحر
المتوسط بأكمله) ، ثم للعالم الوسيط ، ثم للعالم الحديث ، فإن سيناء تشغل
من مصر مركزا ممتازا فريدا ، إذ هي المدخل الشرق لهذه الواحة الكبيرة .

سيناء شبه جزيرة ، غير محددة المعالم من الناحية الطبيعية ، ولنغض الطرف
مؤقتا عن الصورة التي في أذهاننا لشبه الجزيرة ، والتي رتبها تعودنا النظر
على خريطة مصر وحدودها الشرقية ، فذلك الخط المستقيم — ما عدا في بضعة
نقط منه — الممتد من رفح إلى تقب العقبة ، لا وجود له في الحقيقة ، بل هو
خط مصطنع ، فرض فرضا على الخريطة الطبيعية ، وعلى سكان جنوب فلسطين
وسيناء على حد سواء ، وإن تاريخ تخطيط الحدود بين الأقطار الشامية وبين
مصر ، سواء في ذلك أثناء العصور القديمة أو الحديثة حتى الأمس القريب ،

(١) سفر الخروج اصحاح ٢٦ — ٢٧ .

بين لنا بوضوح أن الحكام ما كانوا يأبهون بغير الريف (الأرض المتزرعة) في فلسطين وفي مصر ، لكي يحددوا حدودها ، وإذا تجاوز اهتمامهم بلاد الريف ، فإنا ذلك لكي يشمل المراكز ذات القيمة الحربية ، مثل رفح والعريش والطريق التجاري الذي يتجه بحذاء الساحل فيما بين دلتا النيل ومدينة غزة . أما فيما عدا هذا ، ما يطلق عليه اسم النجب حاليا ، وهضبة التيه وطور سيناء وشمال بلاد العرب ، فلم تعباً المعاهدات والاتفاقات السياسية ، بين الولاة والحكام بتحديد تبعيته السياسية ، وحق ما فعلوا ، فتلك مملكة البدو ، لا يشاركهم النفوذ فيها أحد ، يتقاسمونها بين بطونهم وعشائرهم المختلفة ، بغير بعضهم على أرض بعض ، ويتسع نفوذ بعض القبائل حيناً وينكمش حيناً آخر ، وهكذا ، يتحركون بحرية تامة بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين وسيناء ؛ ومن ثم كان تاريخ هذه المناطق الثلاث تاريخاً — لا نقول مرتبطاً متداخلاً فحسب — بل هو تاريخ واحد . وكان من العيب تحديد الحدود وإقامة المخافر ، ولا سيما بين قبائل لا تشعر بأى قداصة لتلك الحدود ؛ وهذه الحقيقة أيضاً تفسر الكثير من سلوك البدو الذي نراه بأعيننا الريفية الحضرية ، المصطفية بالترية الوطنية المحلية ، نراه غريباً شاذاً ، ولكنه في نظر البدو طبيعي لا غبار عليه .

(ب) البيئة الجغرافية :

شمال سيناء سهل مموج كبير ، يتحدر من هضبة التيه تدريجياً نحو البحر الأبيض المتوسط شمالاً ، وتنصرف مياه هذا السهل في وادي العريش وروافده العديدة ، وهذا الوادي ينبع من هضبة العجمة ، ثم يعبر هضبة التيه المنبسطة ، حيث توجد التمد والنخل ، والذي يعبر طريق الحج القديم المشهور ، ثم يهبط من مستوى ٤٠٠ متر نحو سهل الحسة ، حيث تغذيه وادي قرية من الشرق ؛ ووادى البروك من الغرب ؛ ثم يشق الوادي طريقه في خائق ضيق ، يسمى بالضيقة ، بين جبل ضلفع من الشرق ، وجبل الحلال من الغرب ، ومن ثم يهبط إلى مستوى ٢٠٠ متر ؛ ويشق طريقه في منطقة كتبان رملية حتى يصب شرق العريش . ويعتبر هذا الوادي أكبر الأودية الحافة الموجودة في مصر ، وبلى نهر النيل من حيث المساحة التي يصرف

مياها ، مما جعله أهم ظاهرة فيزيوغرافية في شبه جزيرة سيناء ، تقام عليه مشاريع رى الصحراء وتعقد على واديه الآمان في مشاريع التوسع الزراعى المستقبلية .

وتتكون أرض هذا السهل بصفة عامة من التربة الهوائية (اللويس) ^(١) المكونة من فئات الصخر الجيرى ، مختلطة بالرمال ، والتي تعرف باسم الطفل الجيرى أو اللوم Loam ، وهى نتيجة التعرية الهوائية لفئات الصخور الجيرية والرمال واختلاطها معاً . إذ تتكون صخور شمال شبه الجزيرة من التكوينات الجيرية التى أرسبت في الزمن الجيولوجى الثالث (عصرى الإيوسين والبليوسين) وتغطيها الكتيان الرملية التى تحاذى ساحل البحر من ناحية ، والتي تغطي نطاقا داخليا يمتد حتى خط القصيمة من ناحية أخرى . وهذه الكتيان الرملية ظاهرة طبيعية ذات أهمية كبرى في شمال شبه الجزيرة ، تعتبر كمخزانات طبيعية لمياه الأمطار التى تسقط شتاء ، في النطاق الساحلى ، كما أنها ذات خطر داهم على الزراعة والبساتين القليلة المنتشرة ، وعلى طرق المواصلات في المنطقة إن لم تتخذ الإجراءات اللازمة نحو تبيتها في أماكنها .

شمال سيناء جزء من الصحراء ، لا يكاد يسقط عليه سوى ١٠٠ مم من المطر في العام ، اللهم إلا في الشمال الشرقى من الساحل ، وحتى في هذا الجزء نجد أن شكل الساحل يوازى تقريبا الاتجاه العام للرياح التى تهب شمالا ، ولذلك فانا نستطيع أن نعتبر المنطقة من بورسعيد غربا حتى رفح شرقا ضمن النطاق الصحراوى .

ولا تختلف الظروف الجغرافية في صحراء سيناء عنها في صحراء النجب (جنوب فلسطين) في شيء ، فهما في الواقع إقليم طبيعى واحد ، يندمج كلاهما بدورهما في إقليم شمال شبه جزيرة العرب وبادية الشام ، ولذلك كانت هذه المنطقة كلها مسرحا واحدا لحركات الجماعات البدوية منذ أقدم الأزمنة ، لا يجد حركاتها أى عائق طبيعى ، ولم تستطع الحدود السياسية المصطنعة أن تحدها حتى وقت قريب .

(١) Reifenberg, A. Soils of Palestine, London 1938, p. p. 25—50.

إلى جانب وادي العريش الذي يمتلئ بالماء في فصل الشتاء بعد مرور إعصار يصطدم بمرتفعات سيناء (هضبة العجمة) ولعامل الارتفاع ذاته في هذه الهضبة ، نجد أن موارد المياه قليلة جدا ومتناثرة في هذه المساحة الكبيرة ، وهذه الموارد المائية ليست سوى عدد قليل من الآبار المتباعدة ، وعين ماء واحدة ، هي عين الحديرات ، أما في النطاق الساحلي فإن مستودع الماء الباطني قريب جدا من سطح الأرض ، ويمكن الحصول عليه بحفر الآبار ، وهنا يلاحظ أن الماء يتدفق من متوئين ، أحدهما المستوى العلوي ، وهو لا يزيد عمقه عن بضعة أمتار عن سطح الأرض ، ومستوى الفجرة ، ويتراوح عمق هذا المستوى بين ١٠ - ١٥ مترا عن سطح الأرض ، وهذا المستوى أغزر ماء من المستوى السطحي ، ويتطلب نفقات كبيرة ، ولكنها ضرورية للاستغلال الزراعي في هذه المنطقة (١) .

(ج) أهمية شبه جزيرة سيناء من الناحية البشرية :

سيناء إذن ، من الناحية البشرية ، جزء من إقليم أوسع أفقا من مجرد شبه الجزيرة التي نتخلها فيما بين الحدود الشرقية وقناة السويس ، وهي بحق حلقة الاتصال بين شبه جزيرة العرب من ناحية الشمال ، وبين جنوب الأقطار الشامية ، وبين وادي النيل الأدنى ، وأن البائل الرعوية - حتى وقت قريب - كانت تتجول بحرية في هذا الإقليم المتسع . والمظهر العام لهذا الإقليم هو مظهر الصحراء التي كانت تسمى بالصحراء الصخرية أو بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea ، ويسقط عليها أقل من ١٠٠ سم مطر في العام ، يشتغل

(١) E. Hall, Memoire on the Geology and Geography of Arabia Petraea, Palestine and the Adjacent Districts, London 1886.

H. J. L. Beadnell, The Wilderness of Sinai, London 1927, Moon & Sadek, Topography and Geology of Northern Sinai, Cairo, 1921.

A. Musil, Arabia Petraea. Arabia Deserta, 1927. & Northern Hejaz, 1936.

فيما يختص بالماء الجوفي ، من المفيد جداً الاطلاع على :

G. S. Blake & Goldschmidt, Geology and Water Supply of Palestine London 1947.

أهلها بالرعى في بطون الأودية ، أو يتجمعون حول الآبار القليلة المتناثرة ، ولم تكف هذه البيئة أهلها مطلقا ، ولذلك فهم دائما في حركة وراء الكلا والرعى ، ولكن أهل البادية هؤلاء فرضوا أنفسهم على التاريخ هجراتهم المتوالية إلى أطراف الهلال الخصيب من ناحية وإلى وادي النيل الأدنى من ناحية أخرى ، وهذه هي الهجرات السامية التي أشار إليها العهد القديم ونصوص قدماء المصريين وليس هنا مجال الحديث عن هذه الهجرات وتاريخها ، ولكن يكفي في هذا المقام أن نذكر أن خهرة العلماء والباحثين ، قد أجمعت على أن بلاد العرب هي مهد الشعوب السامية البادية ، وأن هذه البلاد كانت تفيض بسكانها التي لا تستطيع أن تقوم بأودهم ، فلم يكن تمت بد من أن تنبعث الموجات البدوية من هذا الخزان البشري الكبير ، وتهاجر إلى ماجاورها من بلاد الريف العراقي والريف السوري والريف المصري ، ويتصور كثير من الباحثين أن هذه الهجرات كانت تخرج موجة إثر موجة ، وهم يعرفون بأن أقدم هذه الموجات ذكرا في التاريخ ، هي تلك التي بدأت في الألف الثالث ق.م. وهذا لا يمنع أن تصور هذه الهجرات أقدم من ذلك ، ويبدو أن في هذا التصور كثيرا من التبسط الذي قد يشوه الصورة الحقيقية ، وهذا التبسط قد تدعو إليه مناهج البحث العلمي ، ولكنه لا يتفق كثيرا مع الحقيقة (١) .

اننا نشاهد حتى الآن جماعات البدو على أبواب الريف ، تحيا حياة بسيطة تحت رحمة الظروف الطبيعية ، لا يكاد يسقط في بيتها من المطر إلا التزر القليل وقد ينقطع الغيث عاما إثر عام ، إذ نحن هنا في أطراف إقليم البحر المتوسط ، الذي تهب عليه أعاصير الشتاء الممطرة ، ومن شأن الأمطار الإعصارية الذبذبة وعدم الانتظام ، فتختلف كمية الأمطار الساقطة من شهر إلى شهر ومن عام

(١) عن نتائج الهجرات البشرية لسامية وتواريخها أنظر على سبيل المثال :

H. J. Myres, *The Dawn of History*, London 1911, Ch. V.

W. Ripley, *Races of Europe*, New-York 1900, p. p. 365 — 399

C. Coon, *Races of Europe*. New-York 1937. Ch. XI.

— *The Caravan*, London 1952.

Barton, *Semitic and Hamitic Origins*, London 1935.

الى عام ، ولما كان مايسقط من مطر على حافة اقليم الصحراء واقليم البحر المتوسط نزرا ضئيلا ، لا يكفي سوى الكلا في بطون الأودية ، القريبة من مستوى الماء الباطني ، فانه كان العامل الفيصل في تحديد مساحات المراعي ، ومن شأن هذا التمرر الضئيل من المطر أن يتأثر بسرعة ذبذبات أعاصير الشتاء ، التي لا تعطل إلا أطرافها البعيدة ، فان كانت الانخفاضات الاعصارية عميقة ، هبت إليها الرياح بسرعة ، وهي ترجي السحاب ، وكان المطر غزيراً ، وكان النيث في شمال الصحراء ، وكانت المراعي فسيحة ، تطعم منه قطعان الإبل والضأن . وتشكائر ، فيعيش البدوي راضيا قرير العين ، أما إن كانت الانخفاضات الإعصارية ضئيلة ، قليلة الأمطار ، في إقليم البحر المتوسط ، شحيحة أو جافة في شمال الصحراء ، تضاءلت مساحات المراعي ونفقت الإبل وأصاب لبدو غم شديد ، فإذا تكررت تلك الحالة بعد عام ، اضطربت جموع البدو وزحمت نحو الريف الحصب ، إما متسللين فرادى وجماعات قليلة العدد ، تحمل متاعها وسلعها — من صوف وأقط — تلتمس الرزق في أطراف الريف ، وإما غزاة فاتحين ، وخصوصا إذا كانت الأداة الحكومية فاسدة في هذا الريف ، وكانت نظم الحكم مهارة ، ، والبدو الذين يعيشون على هامش الحضارات الزراعية المستقرة ، على جانب كبير من الاحاطة بأحوال تلك الحضارات ، لا يترددون في غزوها قوة واقتدارا إذا سنحت لهم الفرصة ، ويعقب هذا الغزو المسلح عادة فترة طويلة يتسلل فيها البدو إلى أطراف الدول الزراعية (الريف) ويحجون حياة نصف بدوية ، ولكنهم لا يلبثون أن يتدبجوا تماما في الحياة الزراعية الجديدة ، ويستثرون نهائيا في الريف . وهذه عملية قد تستغرق أجيالا طويلة ، ولكنها عملية مستمرة متكررة في العالم العربي ، منذ أقدم عصور التاريخ حتى الوقت الحاضر .

وأقرب الأمثلة على هذه الظاهرة البشرية في العالم العربي ، هو مثل الموجة العربية إلى بلاد الهلال الحصب ، التي سبقت ظهور الإسلام بخمسة قرون على الأقل ، وكان من مظاهرها دولة الأنباط جنوب فلسطين من القرن الثالث حتى مطلع القرن الثاني الميلادي وعاصمتها سلع أو بترا (Petra) ؛ وقد توغل هؤلاء العرب الذين كانوا يشتغلون بنقل التجارة عبر بلاد النجب ،

حتى مدينة الخليل (حبرون) ويافا شمالا ، وعلى أيديهم بدأ استعراب فلسطين كما أن على أيدي الغساسنة ، أصحاب أمارات شرقي الأردن وبادية الشام ، بدأ استعراب سوريا ، إذ أنهم هم الذين عبدوا الطريق لفتح الاسلامي نفسه في القرن السابع الميلادي ، وقد بدأت موجة كبيرة من تدفق البدو من شبه جزيرة العرب ، شمالها وجنوبها ، إلى العراق وسوريا ومصر ، بعد الفتح الاسلامي (١) ، بل أن الهجرة العربية إلى بعض أنحاء مصر ، مثل مديرية جرجا ، لم تبدأ إلا في القرن الخامس عشر ، أي في الأوس القريب (٢) ولولا الحكم المملوكي التركي لاستمرت الموجات العربية تغد إلى مصر بشكل أقوى ومثل هذا يتفق مع الحالة في العراق والأقطار السورية . ويحمل القول أننا لانزال في الموجة العربية التي تزعم الكتب المبسطة أنها حدثت في القرن السابع الميلادي .

هذا المثل ينطبق على نحو أدق فيما تطلق عليه الكتب المبسطة الموجات السامية ، وتحدد لها تواريخ تبدو كأنها محددة ، وربما كانت هذه التواريخ تدل على الأوقات التي اتخذت فيها هذه الموجات شكلا عتيفا ومظهرا حريا . وحركات البدو عملية مستمرة تتخذ شكلا سلميا في معظم الأوقات ، ولا تتركز إلى العنف إلا في أوقات الضعف والأنهار التي تنتاب الحكومات المستقرة في الريف العراقي أو السوري أو المصري . ولا علاقة لها بما يزعم هنتنجتون ومدرسته من تغير المناخ (٣) . بل هي لا تحتاج لمثل هذه النظرية - التي لم يلزم التوفيق أصحابها - لكي تفسر حدوثها ، ولولا ما استحدثت دول الغرب في الشرق الأدنى من بدعة الحدود السياسية ، وتخالف الحدود ونقط الحمارك لاستمرت تلك العملية حتى وقتنا الحاضر ، تغذي الريف المجاور بمزيد من الدماء العربية (٤) .

(١) أنظر الدكتور سليمان حزين ، سكان مصر وتاريخهم الجنسي ، مجلة الجمعية المصرية لدراسات التاريخية ، المجلد الأول

(٢) و (٣) أنظر ميسبي وحيد ، في أصول المسألة المصرية ، الفصل الثاني .

(٤) أنظر على سبيل المثال : E Huntington, The Pulse of Asia, New-York: 1926.

— Palestine and its Transformation, New-York 1911.

— and Visher, Climatic Changes, New-Haven, 1922.

(٥) أنظر A. Musil, op. cit.

تحدثنا عن سيناء كجزء من إقليم أوسع يشمل شبه جزيرة العرب وجنوب شرق الأردن وفلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى يرزخ العريش . ورأينا كيف كانت سيناء معبرا للشعوب البادية التي هاجرت إلى مصر من الشمال الشرق وسنستمر الآن في إبراز أهمية موقع شبه جزيرة سيناء باعتبارها جزءا من هذا الاقليم الواسع ، ولا سيما من الناحية البشرية ، وقد سبق أن أشرنا إلى تسلل العبريين إلى مصر حوالي القرن الرابع عشر ق. م. ويبدو أن القبائل البدوية كانت تجول في هذا الاقليم الواسع الذي أشرنا إليه ، والذي كان يمتد حتى يشمل حافة الريف المصري في وادي الطميلات وحدود مديرتي الشرقية (١) والدقهلية ، ويبدو أن هذه القبائل خيما كانت تمت بعضها ببعض الآخر بصلات القرى والعصب ، فبها قبائل ايديم ومواب ، وقبائل الاسماعيليين والعبريين ، ويدل على ذلك أيضا توزيع القبائل كما ورد في سفر التكوين ، فواب وايديم استقرتا في شرقي الأردن ، وقبائل الاسماعيلية (٢) (التي انحدر منها بنو قحطان والعرب) كانت في جنوب فلسطين ، والعبريون استقروا في هضبة يهوذا ، بعد أن انضم اليهم بنو عمومتهم الذين كانوا قد تسللوا الى أطراف الريف المصري في أرض جوشن ، ويدل على ذلك أيضا وصف يوضع لطريق الخروج من مصر ، ولاقليم غزة وبئر السبع الذي أطلق عليه العبريون اسم النجب ، ومعناه أرض الخنوب (٣) ، هذا الى أن مدينة غزة نفسها كانت بقعة عسكرية ونقطة حراسة أمامية للجيوش المصرية لمرآقب تحركات البدو على حدودها (٤) .

(١) أنظر الدكتور عباس عمار ، المدخل الشرقي لمصر : مجلة الجمعية الجغرافية المصرية جزء ٢١ ص ٩٢ وما بعدها .

وانظر أيضا Maspero, Dawn of Civilization, 1869, p. 459

(٢) أنظر Richard Burton, The Land of Midian, Vol. I, p.p. 236 & 294.

وأیضا خريطة توزيع القبائل في فلسطين في القرن العاشر (ق . م.) منقول من :

Ghailab, M. E. S. Constant في مقال للكاتب H. Gutbe, Bibelatlas, Leipzig, 1911. and Variable Factors in the Interrelations Between Judaea Plateau and The Maritime Plain in Palestine, Bull. Soc. Roy de Geog. d. Eg. Vol. XXIV, p. 223.

(٣) أنظر للكاتب مقال The Settlement of The Negeb. في مجلة معهد الصحاري المصرية ،

(تحت النشر) والجغرافيا التاريخية لاقليم النجب — محاضرات الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٥٦

(٤) المقال السابق .

وكان لهذا الاقليم أهمية خاصة كطريق من طرق التجارة بين الشرق والغرب وخصوصاً في حالات الاضطراب والقلق التي كانت تهدد الطريق التجاري الشمالي (اللاذقية - أنطاكية - حلب - قسرين - فالنرات) أو (طريق دمشق - تدمر - الثرات) ، أي أنه كان طريقاً ثانوياً ، تلجأ اليه التجارة إذا تعرض الطريق الشمالي للاضطراب^(١) . وكان مركز هذا الطريق هي مدينة سلع Petra : إليها تنهى تجارة اليمن عن طريق الحجاز بحذاء البحر الأحمر واليها تنهى تجارة الشام عن طريق مدن حافة الصحراء ، دمشق قعمان قعمان فسلع ، ثم اتجه الطريق بعد ذلك نحو الشمال بشرق الى كرب ، (مغيس) أو الى عبدا ، ثم الى بئر السبع فغزة من ناحية ، أو الى خلاجة فالعوجة فالعريش من ناحية أخرى . وقد نشط هذا الطريق بصفة خاصة من القرن الثاني ق. م. الى القرن الثاني الميلادي على يد الأنباط^(٢) . وهم في الأصل بدو رحل من العرب ، امتد نفوذهم فشمّل شرق الأردن وشمال شبه الجزيرة العربية واطليم النجب والساحل الشمالي الشرقي لمينا وساحل فلسطين الجنوبي الذي شمل مدينتي غزة والمجدل ، وكانت عاصمتهم سلع ، وكان نشاطهم كله متجها نحو التجارة ، ولم يكن للزراعة أي نصيب في حياتهم ، فمن الخطأ مسايرة بعض الكتاب الذين زعموا ، أن النجب كانت تتقبل كميات أكبر من الأمطار وأنها لهذا السبب مرت في فترة رخاء ، بل الحقيقة أنها لم تكن تغل جدبا عما عليه الآن^(٣) ، وأن نشاطها كان تجاريا محضاً ، وأن مدنها لم تكن سوى محطات للتجارة ، قامت حيث الماء والآبار القليلة في هذا الاقليم ، نتيجة لظروف خارجة عن ارادتها ، وهي اعتراض البارثيين^(٤) لطريق التجارة الشمالي وما أن زال هذا العائق حتى عاودت التجارة طرقها القديمة ، وفقدت كل من تدمر وسلع مركزها القديم . وعفا عليهما الزمن .

(١) راجع S. A. Huzayyin. Arabia and The Far East, Cairo 1942 p. 6 and pp. 219 ff.

(٢) راجع محاضرة محمد السيد غلاب المشار اليها في محاضرات الجمعية الجغرافية سنة ١٩٥٦

(٣) راجع ما سبق وأيضا L. Woolley & Lawrence. The Wilderness of Zin.

(٤) راجع الدكتور حزين ، المرجع السابق ذكره .

وقد استمر هذا الطريق التجاري في العصر الروماني الأغرقي (البطلمي والروماني في مصر) وكان من نتيجة ذلك ازدهار العريش ورفع ، أما في العصر البيزنطي ، فقد كان هذا الأقليم بمثابة إقليم حدود تحولت فيه المدن التجارية إلى مدن قلاع لحراسة الشام ومصر من غزوات العرب ، فسارت بذلك مدن النجب وسينا نحو التدهور ، وما أن انهارت دولة بيزنطة في القرن السابع الميلادي ، حتى فقد هذا الأقليم أهميته كإقليم حدود ، وما أن توقفت التجارة بين الشرق والغرب من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، حتى زالت أيضا الأسباب الداعية لقيام هذه المدن الصحراوية ، فاندثرت بسرعة ولم يبق منها سوى مدن شمال سيناء ، التي كانت بمثابة محطات للقوافل المسافرة بين الشام ومصر عن الطريق الساحلي ، وقد ظل هذا الطريق الساحلي عامرا بالقوافل حتى الوقت الحاضر ، لم يفقد أهميته منذ أقدم عصور التاريخ حتى الآن (١) .

ومما زاد في أهميته إمكان الحصول على الماء الجوفي من عمق قليل على طول الساحل ، وقد احترقت هذا الطريق الجيوش التركية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وسارت تلك الجيوش عن طريق رفح والعريش وبئر العبد فالتنظرة كما سارت عن طريق العوجا فالتقصيمة فبئر الحسنة فالفردان على ضفة القناة الشرقية ، وقد نهبت هذه الغزوة أذهان البريطانيين إلى أهمية شبه الجزيرة الحربية فعبروا الطريق الشمالي ومدوا خطوط السكك الحديدية في أثر جيوشهم الفاتحة لفاستين ، بسواعد المتطوعين المصريين .

هذان هما الطريقان اللذان يعبران شمال سيناء ، أما إلى الجنوب من ذلك فيعبر شبه الجزيرة طريق الحج المشهور ، الذي يبدأ من شمال السويس (العجروود) ويمر بنخل وسط هضبة التيه ويتجه جنوب بشرق حتى تقب العقبة ، ويقال ان هذا الطريق بدأت أهميته بحج شجرة الدر عام ٦٤٥ هـ (٢) .

(١) راجع عباس عمار ، سبق ذكره ، من ص ٥ - ١٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩ وما بعدها .

(منتصف القرن الثالث عشر الميلادي) ثم رحلة الظاهر بيبرس (٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م) ثم الناصر قلاوون (١٣١٩ م) . ويبدو أن هذا الطريق لم يكن مطروقا الا في عصور الاضطراب التي كانت تنور فيها قبائل البجا على ساحل البحر الاحمر ، وتعرقل طريق الحج الجنوبي (طريق قنطرة أو قوص ثم عيذاب أو القصير) .

(د) القبائل البدوية في سيناء (*)

يبلغ عدد السكان البدو في شبه جزيرة سيناء حوالي ٤٠.٠٠٠ نسمة ، يقابلهم ٥٠.٠٠٠ حضري ، هم سكان العريش وأبي سقل ورفح والقنطرة والطور ، ويسكن في مدينة العريش وحدها حوالي ٤٠.٠٠٠ نسمة من الحضري .

وتنقسم سيناء من الناحية الادارية الى ثلاثة أقسام : قسم سيناء الشمالي ، ويشمل النطاق الساحلي من رفح الى القنطرة ، وقسم سيناء الأوسط ويشمل هضبة التيه ، وقسم سيناء الجنوبي ويشمل هضبة العجمة ، والمثلث الجنوبي من شبه الجزيرة .

ويسكن قسم سيناء الشمالي قبائل الرميلات ، والسواركة ، والجديرات والتغارسا والبيلى والدواغرة والعبادة والماعيد ، وتنقسم كل قبيلة بدورها الى عائلات .

فالرميلات تشمل أبو صبيح ، وأبو عياد ، وأبو عبد الله ، وأبو شيخة . والسواركة تشمل أبو داود ، وابن عوض ، ومريشد وابن عراجة وأبو عيطة والبياضية تشمل الهرش ، وأبو عياني وأبو مرزوقة وسيد احمد والأخارسا عائلة واحدة .

ويسكن سيناء الوسطى ، قبيلة الترابين وهي أقوى قبيلة في سيناء وتنقسم الى عدد كبير من العائلات أهمها الدلدلة ، والحسابلة ، والعويضات ، والقصار ، والعرجاني ، والأحرامية ، وأبو سحبان ، وابن جازي ، وابن زاهد ، والبداره

(٥) هذه المعلومات مستمدة من مشايخ البدو ومن بعض أهل العريش الذين يشكلون وفئات ادارية في المحافظة ، وهم يحكم عليهم على اتصال دائم بقبائل البدو ، ويمكن الثقة في معلوماتهم ، اذ أنهم أيضا يحكم عليهم ، يمتزنا اهتماما خاصا ، بتوزيع القبائل ومناطق تجوالهم ، واحصاء أسرها .

والجهامات ، وأبو نقيير ، والطيبور ، والشنيات ، والبحيج . وهناك قسم كبير من الترابين في جنوب فلسطين أهمهم الصوفي ، وأبو ستة ، وأبو غالية ، وأبو الحصين ، وأبو بكره ، وأبو عويلة .

أما قبيلة الاحيوات وهي تسكن قسم سيناء الأوسط أيضا فتشمل النجمات والحمدات ، والصفايحة ، والقصار ، والحناظلة ، والعقنان . ويسكن جنوب سيناء عدة قبائل صغيرة أهمها مزينة ، والظوره (نسب الى الطور) والعليقات والحراشة والصوالحة .

الى جانب هؤلاء ، هناك قبيلة العزازمة التي تسكن شقة ضيقة على طول الحدود المصرية الشرقية فيما بين جبل العمز شمالا وشرقي أرض الترابين جنوبا .

ويزعم عرب شمال سيناء جميعا فيما عدا الحويطات ، أنهم من نسل وائل جد بني عطية في شبه جزيرة العرب والمعازرة في مصر^(١) ، الا أنه من الصعب تتبع نسب القبائل البدوية لتدخل عدة عوامل أهمها الفرق بين نظام القبيلة ؛ والعشيرة Clau (التي تسمى عائلة في سيناء) فالعشيرة جماعة من الناس تشترك في نسب واحد ، يرجع الى أصل واحد ، بينما القبيلة تتكون من عدد من العشائر لا يشترط فيها أن تكون ذات علاقة نسب الى بعضها البعض الآخر ، وقد يحدث أن تندمج عائلة أو عشيرة في قبيلة من القبائل أو تخرج منها لتندمج في قبيلة أخرى تبعا لظروف محلية مختلفة ، منها أن تحل بها هزيمة على يد قبيلة أقوى ، فتعرض للسبي ويفرط عقدها ، ومنها أن تفتقر الى وسائل القوة المادية مما لا يسمح لها بالاستقلال القبلي ، كأن تجذب مراعيها وتتناقص أنعامها ، فتشتت عشائرها وتنضوي تحت ألوية قبائل أخرى تمتاز بالقوة والغنى والمنعة ، تدفع لها الحوة نظير حمايتها . وقد تنتقل زعامة القبيلة من عائلة الى عائلة أخرى ويصبح ذلك تغيير في اسم القبيلة ذاتها^(٢) ، ولذلك كان استجاب رؤساء العشائر ومشايخ القبائل عن أصول قبائلهم مدعاة في كثير من الأحيان الى الوقوع في الخطأ .

(١) Murray, G. W. The Sons of Ishmael, 1935, p. 242 ff.

(٢) المرجع السابق .

وتعتبر قبائل بلي أقدم العناصر العربية الموجودة في شبه جزيرة سيناء ، وان كانت من أقلها عدداً وأصلها شأننا الآن ، وربما رجح مقامها في أرض الحفار (شمال سيناء) الى القرون الأولى للمسيحية ، عندما كان للأنباط مملكة واسعة تمت نفوذها الى شمال سيناء ، وقد اعتنق الأنباط المسيحية كما اقتبسوا الثقافة الهلينية ، وتسمى أحد ملوكهم الحارثة باسم حبيب الاغريق Philhellene هذا الى أن الدولة البيزنطية كانت تعهد الى بعض بطون العرب في حراسة حدودها الشرقية وأشهرهم الغسانة ، وأحلافهم من لحم وجذام ، وهم بطون من كهلان ، وقد امتد نفوذ هذه القبائل من عمان الى آيلة (العقبة) ومن هذه الى حدود مديرية الشرقية ، وكانت كلها كما ذكرنا تدين بالمسيحية ، وقد وجدها الغزاة المسلمون في هذا الطريق عند دخولهم مصر^(١).

ولكن بعد الفتح العربي الاسلامي لم تعد سيناء هدفاً في ذاتها للقبائل المهاجرة ، إذ أن هذه وجدت في ريف مصر فينا أغنى وأجدى عليها بالخير العميم . ولذلك فقد اقتضت أهميتها على كونها مجرد طريق عبور للقبائل العربية المهاجرة الى مصر ، وقد ظل الحال كذلك حتى العصر المملوكي التركي أي الى القرن الرابع عشر ، إذ أن المماليك ومن لف لفهم من العناصر التركية (ابتداء من الدولة الطولونية) لم تكن تلاحظ بعين الارتياح الى ازدياد العنصر العربي الصميم في مصر ، بل كانت لا تشجع الا العناصر التركية والشركية وما اليها ، ومن ذلك الحين بدأت موجات عربية أخرى في تعمير شبه الجزيرة نفسها ، بعد أن كانت مجرد طريق مرور .

وأهم التغيرات التي طرأت على توزيع القبائل في سيناء منذ الفتح الاسلامي هما :

- ١ - أن جذام ولحم هاجرت من شبه الجزيرة الى مديرية الشرقية .
- ٢ - أن نعلية قوى شأنها في جنوب فلسطين وامتد نفوذها الى شمال سيناء من القرن العاشر حتى الرابع عشر .

(١) عباس عمار ، سبق ذكره ، ص ١٠٤

٣ - منذ القرن الرابع عشر ضؤل شأن ثعلبة أمام ضغط قبائل أخرى من بني عطية ، لم يرد ذكرها في الكتابات السابقة لهذا العهد ، وهي السواركة والرايين ، الا أن بقايا ثعلبة لا يزال تمثلها قبائل ضئيلة الشأن الآن ، أهمها البلي والعاثد ، وقد هاجر معظم هؤلاء الى ريف مصر .

٤ - كان السواركة يمتلئون معظم شمال سينا الى الجنوب والغرب من العريش الى أن ضغط عليهم الرايين والتياهة من الجنوب فانكشت منطقتهم (١) .

وبعد :

هذه هي سينا ، الباب الشرقي لهذا البلد الأمين وحلقة الوصل بينه وبين أقطار العروبة الأخرى ، بينه وبين خزان العروبة الكبير شبه الجزيرة العربية ، وبينه وبين الهلال الخصيب ، منه وفدت الدماء الذكية التي تجرى في عروق المصريين ، السلالة الحيزوية التي دفعت بالمدنية المصرية القديمة ، في عهد بناء الأسرات ، الى الأمام ، والتي يمثلها تمثال شيخ البلد ، والتي تكون أحد عنصرى مصر من الناحية الانثروبولوجية . ومنها اتصلت بمهد الديانات التوحيدية الكبرى ، ومهبط الوحي في فلسطين ، ومنها وفدت العناصر العربية تبشر بالاسلام وتحمل لغة القرآن وفيها تكونت الحضارة العربية .

سيناء هذه تحتاج منا مزيدا من العناية لنهض بها عمرانيا واقتصاديا ، ولنصد منها الغزاة الاسرائيليين ، وانها بتاريخها المجيد المتصل بتاريخنا القومي منذ ٣٠٠٠ ق.م. لتحفزنا أن نلقى بالفرجة الى البحر ، كما قد فعل أسلافنا ، ليأخذ التاريخ مجراه الأصيل ، وتصبح سيناء مرة أخرى حلقة الوصل بين مصر وبلاد العروبة الأخرى .

(١) راجع الخرائط المتشورة في المرجع السابق (جاس عمارة) ص ١٠٠ ،

١٠٥ ، ١٠٦ .